وقضى بذاك السجن غولو بعدما ... ايامهُ بالذل كان قضاها
ومضى الى دار الشقاء معذَّباً ... يا ويح تلك النفس ما اشقاها
أنعِم بقصّةِ جنفيافَ وحسنها ... فهاك نظماً يا اخي فحواها
رحم المهيمن كل ذات فضيلةٍ ... هي مثلها في برّها وتقاها

المذهب الدروييني واصل الانسان

لحضرة الاب اسكندر طوران اليسوعيّ (تابع)

٣ مذهب النشوء والتحول

لمذهب النشوء والتحوّل دَوْران اصليّان تطوَّرَ بهما في انتشاره : الدَّوْر الاوّل هو الذي شاع فيهِ مذهب دروين كما اوضحهُ في كتابهِ المعنون بأصل الانواع وهو اوّل ما صنَّفهُ ثمَّ اردفهُ بكتب اخرى عديدة سعى فيها بتوسيع نطاق مذهبهِ . اما الدور الثاني فهو دور الجوهر الفرد (le Monisme) الذي ذهب اليه الالماني هكل

١ المذهب الدروييني

كان دروين انكليزيّ الاصل مولدهُ سنة ١٨٠٨ ووفاتهُ سنة ١٨٨٢ وكان بروتستانيّ النحلة مؤمناً بالله وبالوحي قائلاً بتكوين الله عز وجلّ للخلائق من العدم في مواليدها الثلثة اي الجماد والنبات والحيوان كما رواهُ موسى في سفر التكوين في غضون كلامهِ عن خلق الله للنبات (تك ١ : ١١) ثمَّ للحيوان الاعجم (١ : ١٣) ثمَّ للانسان (١ : ٢٤) فدروين يسلّم بكل ذلك ضمناً إن لم يصرّح بهِ في كتابهِ اصل الانواع المطبوع سنة ١٨٥٩ بالانكليزية

ولكن كيف خلق الله هذه المواليد ؟ هل ابدع سبحانهُ وتعالى كلّ انواع النبات والحيوان كما هي حاضراً او كما اطّلع عليها علماء طبقات الارض بعد تلاشيها

في كرور الاجيال . او بالحري هل برأ الخالق في اوّل الخليقة بعض الانواع التي جعلها كأمثلة رُتَب تفرّعت منها بفعل الطبيعة بتمادي الاجيال الاجناسُ والانواع التي نعرفها في زماننا ؟

فيجيب دروين على هذا السؤال غير مرتاب في حكمه انّ هذه الاجناس والانواع الحاضرة او المكتشفة في اعماق الارض لم يخلقها الله رأساً وانّما تعدّدت فيها الاجناس والانواع بمرّ الدهور وبقوّة الطبيعة وحدها وهي ترتقي اصلاً الى بعض الاجناس الاوليّة من النبات والحيوان التي خلقها الله في بدء العالم

واعلم انّ دروين في كلامه عن اصل الكائنات وتفرّعاتها لا يقسمها كلها بفعل الطبيعة الى رُتَب واجناس وانواع وانّما يذكر فقط امثلةً اصليّة (او قل ان شئت مثالاً فرداً) كوّنها الله في بدء الخليقة كانت تتكيّف بكيفيّات مختلفة وتتحوّل الى صور شتّى بفعل عوامل طبيعيّة حتّى بلغت الى خواصّ جديدة وبالانتخاب الطبيعي اصبحت ثابتةً تتوارثها مواليدها وتلك هي الانواع التي نعرفها

فالمبدأ الدروييني يعود اذن الى قوله انّ الانواع تحوّلت بواسطة الانتخاب الطبيعي . ذاك هو ناموسهُ الذي أدار على محوره كلّ مذهبه . يزعم انّ انواع النبات والحيوان قابلة التحوّل من صورة الى صورة ومن جنس الى آخر وانّ هذا التحوّل قد جرى جرياً بطيئاً جدًّا وبطريقة غير محسوسة وبزمان لا يُقاس طولهُ . وذلك ما يجعل الانواع المستحدثة مختلفة كل الاختلاف عن الامثلة الاصليّة المشتقّة منها . وفي هذا التحوّل الدائم يبقى من تلك التطوّرات نخبة من الافراد التي تحفظ الصفات الجديدة التي اكتسبتها ثم تورثها مواليدها بينما تتلف بقيّة الافراد التي دونها بنيّةً وقوّة . وهذا ما يدعوهُ بالانتخاب الطبيعيّ على مثال الانتخاب الصناعيّ الذي يعتمدهُ الناس في عهدنا لايجاد بعض الصنوف العرضيّة في النوع الواحد من الحيوان والنبات

فانّ الذين يربّون في الوقت الحاضر بعض الحيوانات ويريدون ان ينالوا منها صنفاً جديداً يعمدون الى فحولٍ يجدون فيها شيئاً من الخواصّ التي يطلبونها في الصنف الجديد فاذا ولد صغارُها اختاروا منها ما يرونهُ متّصفاً بتلك الخواصّ وينفون البقيّة وهكذا ينالون بعد زمن جنساً من الحيوان المطلوب تثبت فيها تلك الصفات بالوراثة . فينسب الناس الى المربّين المذكورين ذلك الصنف الجديد الذي هو نتيجة

الانتخاب الصناعي الحاصل بذكاء عقل اولئك المربين الحاذقين

وما يصنعهُ مربّي الحيوانات ينالهُ الزرّاع في النباتات والبقول والبستاني في الزهور فانهما يبلغان الى توليد تلك الاصناف الجديدة تارةً بان يجمعا بين صنفين مختلفَيْن من المواليد وتارة بطرائق اخرى لاسيَّما في النبات وكلاهما بعد التوليد ينفي ما يراهُ مخالفاً للصفات المرغوبة

فالانتخاب الصناعيّ الذي يصير بواسطة الانسان وحذاقة عقله يقوم خاصَّة بالغائهِ للمواليد الضعيفة . فمثل هذا الالغاء يُدخلهُ دروين في مذهبهِ لكنهُ يتمُّ على رأيهِ بقوَّة الطبيعة وحدها في انحاء العمور ويتمادي الزمان في النبات والحيوان . يزعم ان افراد الصنف الواحد يثبت منها فقط الاقوياء واما الضعفاء فتتلاشى . فيجري بين هؤلاء الافراد ضرب من النزاع للبقاء فلا يعيش منها الّا الغالب اعني الممتاز بينها بالقوَّة والرشاقة او غير ذلك من الصفات الطبيعيَّة . والعامل في هذا النزاع هو ايضاً على قول دروين الانتخاب الطبيعي

ومن ثمَّ اذ لم يزل هذا الاختيار الطبيعيّ والغاء الافراد الضئيلة جاريين على وتيرة واحدة مدَّة عدَّة اجيال فتنتج عنهما اختلافات زهيدة توارثتها المواليد تباعاً حتى اولدت سلالات جديدة او انواعاً جديدة كما يقول دروين . مثال ذلك انَّ الله خلق في البدء صنفاً من الفرس او حيواناً آخر سبق الفرس ومنهُ تفرَّع في توالي الزمان الحصان والحمار وحمار الوحش والبغل الخ . وذلك بظهور بعض الخواصّ الجديدة التي اكتسبها صدفةً الفرس الاصلي بهذا الانتخاب الطبيعي مع الغاء الافراد الضعيفة ثم اورثها لمواليدهِ من بعدهِ

ومثلهُ الكلب الاصلي المخلوق في البدء تحوَّل الى انواع اخرى فجاء بعد كرور الاجيال على صور شتَّى وراثيَّة يدخل في حيزها الذئب والثعلب وابن آوى والكلب الحاضر وما اشبه ذاك الكلب الاوَّل . وهذه الانواع تولَّدت على رأي دروين في بعض تطوُّرات الجنس الاصلي حيث بلغ احد افرادها الى خاصَّة لم يرثها من مواليد سابقة واورثها هو لمن خلفهُ فثبتت تلك الخاصَّة فيهم واصبحوا هكذا نوعاً مستقلًّا

ودونك مثلاً آخر يُطلعنا على عامل جديد من ذاك الانتخاب الطبيعيّ . يقول دروين انَّ الايل والغزال واصنافهما المتعدّدة رأت قوائمها الامامية تطول شيئاً فشيئاً

في نسلها الى ان ثبتت هذه الخاصة في احد مواليدها فصارت نوعاً جديدة تتوارثهُ وما ذاك الّا الزرافة الطويلة القوائم . وان اعترضتَ على دروين قائلًا : وهب انَّ الزرافة اكتسبت طول قوائمها من نسل النزالة فما قولك بطول عُنقها من اين ورثتهُ؟ فلا يتردّد دروين في جوابهِ وهنا يدخل عاملًا جديداً في انتخابهِ الطبيعي يريد بهِ الاحتياج . ولذلك وضع ايضاً هذا المبدأ «ان الحاجة توجد الآلة» فلمّا طالت قوائم الزرافة بحيث لم تستطع ان ترعى النبات او تشرب ماء السواقي اقتضى الامر ان تُطيل عنقها فاولدت فيها الحاجة امتدادَ العنق وذلك بالتدريج البطيء وفي مدَّة اجيال طويلة ومواليد متعدّدة على حسب ازدياد قوائمها طولًا

وان قلت لدروين : ومن اين للزرافة ذَنَبها الطويل على خلاف الايل والنزال؟ اسمع وتمالك عن الضحك فان دروين سبق بنفسهِ وردَّ على هذا الاعتراض في كتابهِ عن اصل الانواع : « قال كانت الحيوانات الاصليّة من ذوات الثدي خاليةً من الذنب وانّما احتاجت اليهِ بعد ذلك لتقي نفسها من الذباب والهوامّ . فهي الحاجة التي انتجت تلك الذنَبة الزرافة كما للخيل والبقر الخ» . وسوف نعود الى ذكر هذا الذَنَب

وعلى هذا النمط يبني دروين مذهبهُ في كل عضو يجدهُ في انواع الحيوانات الراقية التي في اطوار حاجاتها احتاجت الى تلك الاعضاء فحصلت عليها شيئاً فشيئاً بالانتخاب الطبيعيّ . وما عيونها وآذانها وحواسُّها وقوائمها ومخالبها سوى نتيجة تلك التطوُّرات والانتخاب الطبيعيّ والحاجة . وما يقولهُ دون ادنى برهان عن الحواسّ والاعضاء الظاهرة يقرّرهُ ايضاً للاجهزة الباطنة كدورة الدم والاعمال الحيويَّة . ولو تتبَّع الانسان سلسلة الكائنات بلغ في سلَّم الاجيال متصاعداً الى زمن حيث كانت تلك الحيوانات خالية من تلك الحواسّ وتلك الاجهزة الظاهرة والباطنة . وكل ما يوجد من هذه المخلوقات حيًّا او متحجّرًا في قلب الارض وهو مزدان بهذه الحواسّ هو حديث العهد فلا بُدَّ من الترقّي الى ملايين من السنين قبلها اذ كان خاليةً منها

اسمع الآن ما كتبهُ هكسل من اشهر تلامذة دروين في تكوين حاسَّة البصر قال : « لو تتبَّعنا بالتدريج نشوء هذه الشاعرة صاعدين في مراقي الدهور ومعتبرين توالي

والد الحيوان الى اصله الاول وجدنا انَّ حاسَّة العين تحسَّنت فيه شيئاً فشيئاً بفشو انواع جديدة »

وكلّ هذه التحوّلات تحدث كما سبق القول من تلقاء ذاتها وإنْ هي الّا نتيجة قوّات عمياء. ومفعول الصدفة مدّة قرون عديدة . فهذه العين التي هي احدى عجائب الكون بتركيب كلّ اجزائها التي أُعطيت للحيوان لغايات معلومة قد اوجدتها قوّات الطبيعة دون فعل عقل سام عُني بتكوينها . وكلّ ذلك مبنيّ على هذا المبدأ انَّ الحاجة اوجدت الآلة . وعلى مثال ذلك يقولون في حاسّة الذوق والقوّة المحرّكة . فالذوق نالهُ الحيوان لحاجته الى طعام مريّ وغذاء صالح بينما كانت حاجة الحيوان الى الاكل تجهّز لهُ معدةً لهضم تلك المآكل . ولحاجته الى طلب غذائه قريباً او بعيداً عنهُ احتاج الى اعضاء تنقلهُ بالحركة اليه وهكذا تولّدت القوائم للحيوان من اصغر الديدان الى اكبر الدوابّ وكذلك وُجدت في الاسماك الزعانف وفي الطيور الاجنحة ما لم يفضّل احد تعليل وجود الاجنحة بقوله مع احد كتبة القرن الثامن عشر المتهد الطريق للدرويينيين : انَّ اسماكاً مجنّحة وثبت على قوائمها فخرجت الى الشاطئ حيث نشفت زعانفها واضحت اجنحةً فطارت بها الى الجرّ . فهذه الفكاهة التي عرضها ذاك الكاتب كامر وضعيّ كان يسلّم بأنَّهُ لا هو ولا غيرهُ قد عاينا شيئاً من ذلك وعلى قوله انَّ هذا قد حصل في جهات القطب او في بعض الامكنة المقفرة التي لم تطأها قدمُ البشر . فكم يسمّينا الدرويينيُّون مثل هذه الخرافات التي لا وجود لها الّا في مخيّلتهم ويُضحكون بها الثكلى

ومما يزعمهُ ايضاً الدرويينيُّون لتأييد مذهبهم انَّ الانتخاب الطبيعيّ والفاء المواليد المستضعفة جزيا ويجريان حالًا على ناموس آخر اعني به التنازع على البقاء بين طوائف الكائنات . وهذا مثال عن زعمهم ننقلهُ عن احد علماء العصر الماضي المسيو دي كاترفاج موضحاً بهِ قول دروين قال : معلومٌ انَّ النبات كثيراً ما تأبرهُ الهوامّ عند ما تجني الزهور اطعامها فتنقل من زهرة الى اخرى بمادّة اللقاح المنتشر على قوائمها . ثم من الزهور ما لا يحطّ عليه الّا بعض اصناف الهوامّ . قال دروين : لا يزور نبات البرسم وزهر الثالوث الّا الزنبور . فاذا كثرت الزنابير تا ايضاً البرسم والزهر المذكور بالتلقيح . لكنَّ للزنابير في الجرذان اعداء الدّاء تُغير على اوكارهم . ومن اعداء الجرذان الهرة .

فاذا افترست الهرّ جرذوناً نجا بذلك عشٌ من الزنابير فيعيش نسلهم وينشأ ثم اذا كبر صغار الزنابير يلتهمون البرسم وزهور الثالوث فيزكوان. فترى انّ بين الهررة والجرذان والزنابير حرباً عواناً منهُ ينتج توفّر البرسم » (كتاب دروين في اصل الانواع فصل ٣)

وعلى هذا المثال يقول دروين انّ في العالم اجمع تنازعاً متواصلًا للبقاء تارةً بين الطوائف وتارةً بين الافراد . وفي هذا النزاع يتلف الضعفاء من بعض الوجوه امّا الفائزون فهم الذين يقوون على خصومهم سواء كان بقوّتهم او بخاصّة اخرى . وثمرة هذا النزاع على زعم دروين الانتخاب الطبيعيّ

ويضيف دروين الى التنازع للبقاء عاملًا آخر وهو تأثير الوسط او التناسب والملاءمة . أجل لا يشكّ احد في انّ الظروف المختلفة كالغذاء والسكن ومناطق البلاد وغير ذلك لمّما يؤثر تأثيراً معاوماً في كثير من الحيوان والنبات . فاذا زرعتَ مثلًا النبات متقارباً رأيت بعضها تميل الى حيث تجد هواء ونوراً . بعض الحيوانات قليلة الوبر في البلاد الحارّة فاذا نُقلت الى بلاد شديدة البرد توفّر وطال صوفها . وربّما تغيّر لون وبرها باختلاف مسكنها او طعامها . فان الخنزير البرّي اذا دُجّن وخالف اكلهُ السابق يستأنس فلا يعود الى صيده ليلًا بل يصيب جسمهُ بعض التغيير في بنيته . ولعلّ الخروف في عهده الاوّل كان اشرس خلقاً واكثر نفوراً فلمّا دجن صار ألوفاً دمثاً بتأثير الوسط في خلقه

وما يدلّ على فعل الوسط دلالةً واضحة انّ دواجن الحيوان اذا خرجت من القة الانسان تعود الى طبعها الاصلي فتتوحش . دع مثلًا الفرس او البقر او الكلب في خاوة من البشر فلا تلبث ان تعود الى وحشتها . لكنّ في ذلك دليلًا باهرًا ايضاً على انّ الحيوان الداجن لم يتنوّع كما يريد دروين بل اختلفت فقط بعض اخلاقه عرضيًّا بفعل الوسط وذلك على مدّة تأثير تلك العوامل فيه فاذا كفّت العوامل رجع الى غريزته

ومن العوامل التي التجأ اليها دروين ليثبت زعمهُ في تنوّع الكائنات استعمال الافراد لبعض الاجهزة والاعضاء او عدم استعمالها ومن المعلوم انّ الاعضاء تقوى وتشتدّ بالعمل وبالعكس تضعف وتشلّ باهمالها . فاستخرج دروين مبدأ من هذا الملحوظ تأييدًا لزاعمه فيقول مثلًا ان النّعامة وبعض الطيور المجنّحة تعجز اليوم عن

الطيران لقلة استخدامها لأجنحتها . وكذلك بعض الحيوانات القارضة كالخلد القاصرة البصر او العمياء يزعم دروين انها فقدت حاسة النظر تدريجاً لقلة استعمالها في قلب الارض مع اضافة ذلك الى الانتخاب الطبيعي . وعلى هذا المثال يدّعي دروين انّ كثيراً من الطيور كانت مخالبها تتركب من خمسة اصابع فلعدم حاجتها اليها اهملت استعمالها فشلّ بعضها ثم فُقد

وآخر ما تشبّث به دروين للدفاع عن تنوّع الافراد الانتخابُ النسلي فاذا تزاوج الحيوان ربّما خلّف في نسله صفات جديدة تصير مع الزمان وراثيّة ومن ثمّ اصاب ذكورُ ذوات الثدي اجساماً ذات تركيب اشدّ واقوى وخُصُّوا باسلحة للدفاع عن كيانهم في وجه اعدائهم كالقرون في الابقار والكباش وكالانياب في كواسر الحيوان . وكذلك مُنحت ذكور الطيور محاسن جديدة كالاجنحة الملوّنة الزهيّة وكالتغريد المُطرب وهلمّ جرًّا

على انّ دروين في كتابه عن اصل الانسان اذ يستقري انواع الحيوان ليتحقّق فيها صحّة قوله عن الانتخاب النسلي يلقى في طريقه كثيراً من الشاكل التي تُبطل مزاعمهُ الّا انّ قريحتهُ تجد لكلّ مشكل حلًّا ما شاء ام ابى كما ستري

وهاك مثلًا يوقفك على ما ينويه دروين . انّ رتبة ذوات الثدي البرّيّة تنقسم الى اجناس وانواع غاية في الاختلاف . البعض منها عظيمُ الهيكل كبير الجسم كالفيل الخلي وخصوصاً القيلة التي عاشت في الاجيال الغابرة البالغ كبرها نحو خمسة امتار . وغيرها اصغر جسماً كالجمل وفرس البحر والبقر الخ . ومنها ذوات ثُجث متوسطة كالاسد والدبّ وابن آوى والشاة . ومنها اخيراً انعم وادقّ جسماً كالقرقدون والخلد والجردون والفارة الخ . فبين كلّ هذه الحيوانات المختلفة نوعاً وحجماً وصورةً يوجد على ما يدّعي دروين وحدة مثالية لانّ هياكلها جميعاً مركّبة على رسم واحد اذ لها اربع قوائم متّصلة بجسمها واظلاف في اقدامها ولها رأس بفكّين وانياب وفي ظهرها سلسلة طويلة من الفقرات تنتهي بذنب الخ . وكذلك يوجد تشابهٌ في اجهزتها الخارجة في العينين والاذنين واليدين والثديين المُفرزين للحليب كما في اجهزتها الباطنة ايضاً كالجهاز التنفسي والهضمي وفي اتساق كل هذه الاجهزة وتنظيمها

فيضرب دروين صفحاً عن الاختلافات الجوهريّة بين كلّ هذه الانواع ويزعم انّها كلّها عائدة الى مثال واحد تجنّس وتنوّع حتّى افضى الى كلّ الاجناس والانواع الثابتة التي نشاهدها اليوم وكفى لذلك وجود العوامل التي عدّدها ونسبها الى الانتخاب الطبيعيّ اعني تنازع البقاء وتأثير الوسط والانتخاب الزوجي واستعمال الاجهزة او إهمالها. فهذه وحدها انتجت في تلك الحيوانات الاختلافات التي نحن ندعوها اجناساً وانواعاً وما هي في الحقيقة الّا مواليد مثال اصلي واحد

وما يقرّرهُ دروين عن الحيوانات ذوات الثدى يُثبتهُ ايضاً عن بقيّة الرُتب الحيوانيّة ذوات الفقرات كالطيور والزحافات والاسماك ومثلها رُتب الحشرات العليا كالغشائيّة الاجنحة والغشائيّة الاجنحة والغمديّة الاجنحة. ويضاف الى الحيوان رُتب المواليد النباتيّة الراقية ايضاً الى مثال أصلي وحيد فهذه خلاصة المذهب الدرويني: وحدةُ المثال الاصلي ووجود ذاك المثال في ظروف مختلفة. قال دروين:

« والمفهوم من وحدة المثال الاتّفاق الاصلي الموجود في كائنات القسم الواحد في تركيبها مع استقلالها في العادات وضروب المعيشة. وعلى رأيي وحدة المثال لازمة لوحدة التسلسل. اما احوال الوجود المختلفة فداخلة في الانتخاب الطبيعيّ الذي يستخير حالاً الاجزاء المختلفة التي في كلّ فرد فيطبّقها باحوال حياتهِ او يكون استخارها منذ الاجيال الغابرة فطبّقها بها. وهذه التطبيقات ربّما وقعت بزيادة استعمال الاجزاء او بزيادة اهمالها او تكون حدثت بفعل الاوساط توًّا وهي على كل حال خاضعة لسُنن الشوّ والتحوّل المختلفة. ومن ثمّ يجب القول انّ سُنّة احوال الوجود هي الناموس الاسمى لأنها تشمل بواسطة الوراثة تحوُّلات وتطبيقات سابقة وهي وحدة المثال »

هذا ما كان دروين اقترحهُ في كتابهِ اصل الانواع اعني وضعهُ للانتخاب الطبيعيّ وعواملهِ المختلفة في توليد الانواع. وليس هناك ما يُشعر بنكرانهِ الفعل الخالق او لنسبتهِ الانسان الى البهيمة العجماء وغاية ما يمكن تقريعهُ بهِ انهُ يجعل مقدّمات يُستنتج منها اصل الانسان من الحيوان. وسوف نبدي رأينا في نظريّة دروين هذه عند درسنا للحوادث الحاضرة ولما يُستنتج من العلوم الطبيعيّة كالنبات وطبقات الارض ونبيّن ايضاً كيف اتّسع دروين في مذهبهِ واوضحهُ في تآليفهِ التابعة بعد ان نشرها تلاميذهُ وصارت لها سمعةٌ واسعة فعاد اليها خصوصاً في كتابهِ المعنون اصل الانسان المطبوع سنة ١٨٧١

٢ الجوهر الفرد

هذا الطور الثاني الذي تطوَّر اليه مذهب تحوُّل الانواع وهو يُنسب لهِكل . وهِكل هذا الماني الوطن مولود سنة ١٨٣٤ وهو لم يجترئ بنشر المذهب الدروزي وآراء النشوئيين بل بلغ الى اقصى نتائج المذهب المذكور فنكر وجود الخالق وابتدع طريقة جديدة لتعليل وجود العالم وما فيه من الكائنات سندها الى اوهامه واضغاث احلامه

يزعم هكل ومثلهُ الماديون انَّ المادَّة ازليَّة كانت في الاصل مجموعاً بلا صورة ولا حركة ولا تكاثف ولا حياة . وان سألتهُ كيف نُظمت الافلاك ؟ ومن اين اتت لها نواميس التجاذب العمومي ؟ وكيف تكوَّنت في جملتها ارضنا هذه الصغيرة ؟ يجيبك انَّ كلَّ ذلك حدث بحركة ذرَّةٍ واحدة في الاصل انتقلت منها الى بقيَّة دقائق الكون فحصل بذلك بينها تجاذب وباجتماعها حدثت كلّ التركيبات الكيموية وتكوَّنت المعادن . وجملة القول انَّ الافلاك بأجمعها نشأت من تلقاء ذاتها مع ما يصحبها من النواميس الطبيعيَّة . وقد دُعي هذا المذهب بالجوهر الفرد لتفرُّع كلّ الكائنات تدريجاً من الذرَّة الاولى المتحرِّكة

وليس هذا النشوء والتحوُّل محصوراً بالمادَّة بل ثبت على كماله حتَّى كيَّف المادَّة بصورها المعدنيَّة ثم ترقَّى الى النبات والحيوان فانشأ لها صورهما وكلّ ذلك بقوَّة الطبيعة اذ ينكر هِكل وذروهُ وجود الله ووجود نَفس روحيَّة مجرَّدة عن المادَّة . فالمادَّة وحدها لا تزال تنشأ وتتحوَّل بمقتضى نواميس طبيعيَّة ابديَّة . هذا مذهب الماديين

ولكن اسأل هِكل عن اصل الحياة النباتيَّة والحيوانيَّة أنَّى اتتهما هذه الحياة ؟ يجيبك هِكل انَّ الحياة ظهرت اوَّلاً من تلقاء ذاتها في بعض ذرَّات المادَّة كما تظهر في الآليات عند فسادها . ومن ثمَّ يقول هِكل بالتولُّد الذاتي . يزعم انَّ الحياة تولَّدت اوَّلاً في بعض ذرَّات المادَّة الزلاليَّة التي ترى في اعماق البحر فأضحت اصل الآليات الحيويَّة وبنشوئها بدَّة عدد عديد من الاجيال تمكَّنت من توليد النبات ثمَّ تحوَّل ذاك النبات بعد ردحة من الدهور الى الحيوان وما الانسان الَّا احدى حلقات تلك السلسلة الحيوانيَّة

على انَّ الانسان كما زعم هِكِل لم يبلغ بعد الى كماله وانما هو لا يزال في ترقٍّ متواصل بقوَّته الطبيعيَّة . وكما انَّ جسمهُ هو نتيجة ترقّي جسم الحيوان كذلك نفسهُ ليست هي الَّا ترقّي الحياة الحسّيَّة التي في البهائم فبلغت النطق والادراك بعد الاجيال المديدة . بل يزعم انها كلَّ يوم تزيد ترقّياً

فخلاصة تعليم هِكِل انَّ اصل الانسان نفساً وجسداً من القرد . واذ لا يستطيع ان يعيّن قرداً من اجناس القرود الموجودة حاضراً لما يوجد بينها وبين الانسان من التباين في التركيب الطبيعي زعم دروين انَّ للانسان والقرود الحاليَّة اجداداً اقدم منهما عهداً انقرضت من العالم ولم يبقَ في طبقات الارض اثرٌ منها الَّا انَّهُ لا يشكّ في وجودها (كذا)

وقد ظنَّ بعض علماء العاديَّات انَّهُ وجد هيكلاً لبعض الحيوانات زعم انَّهُ السلسلة المفقودة والوسط بين الانسان والبهيمة فزمَّر الداروينيون وطبَّلوا لهذا الاكتشاف لكنَّهم بعد زمن قليل تبيَّنوا انَّ لا اصل لتلك الاشاعة حتَّى انَّ هِكِل ذاتهُ اقرَّ بذلك فكتب : « اننا حتَّى الان لم نجد اثراً لذاك الانسان المظنون الذي تفرَّع في طور الجيولوجيَّة الثالث من القرود اجداده . لكنَّ الشبه الموجود بين صنف البشر ذوي الشعر الصوفي وبين القرود الشبيهة بالبشر لمَّا يوقف المخيلة بسهولة على مثال متوسّط بينهما يُرجح لنا وجود الانسان القرد » زه ! زه

ومع اقرار هِكِل بعدم وجود تلك الحلقة الموصلة بين بني البشر والقرود تراهُ يتفلسف فيها كأنها قد وُجدت حقيقةً وقد اثبت كيانها فيقول : « كان الانسان غير ناطق وهو اصل كلّ صنوف البشر المتوالية بواسطة الانتخاب الذاتي فاولد اوَّلاً انواعاً بشريَّة فُقد اصلها وانقرضت مع الزمان لكنَّها قريبة الشبه بالانسان القرد وبقي من تلك الانواع جيلان وهما جيل البشر ذوي الشعر الصوفي والبشر ذوي الشعر الصقيل ومن هذين الجيلين تفرَّعت بقية صنوف البشر الحاليين البالغ على زعمهِ اثني عشر صنفاً

فكل هذه الحدسيَّات يعتبرها هِكِل كحقائق راهنة فيزعم انَّ نشوَ المادَّة والتولُّد الذاتي ونشوَ الكائنات الحيَّة وتسلسل الانسان من القرد كأنها لواحق لازمة للمذهب الدروينى ولمبادئ النشوئيين . فالى هذا الحدّ افضى تعليم دروين بواسطة تلامذتهِ اعني الى المادَّة المحضة !

وهل يا تُرى رَضي دروين في آخر حياته بهذه النتائج حتى نكران الخالق عزّ وجلّ ؟ انّ دروين في كتابه عن اصل الانسان المطبوع سنة ١٨٧١ صرّح باعتقاده عن تنوّع الانسان وتفرُّعه من القرد لكنّهُ في هذا الكتاب عينه يقرّر صريحاً ايمانهُ بوجود الخالق ومجازاة النفس كما سترى

امّا هكل فيدّعي انّ دروين صدّق على كلّ آرائه حتّى نفيه وجود الخالق وهو يستشهد برسالة وجّهها اليه وحقّق كلّ اقواله . والله يعلم ان كانت الرسالة المذكورة صحيحة او مزوّرة وقد ثبت تزوير هكل لما هو اعظم شأناً من ذلك اذ بلغت به قحتهُ لإثبات مدّعاهُ عن تسلسل الانسان من القرد الى ان صوّر نُطَف اجنّة قرود وادّعى انّ بعضها لبني البشر فكذّبهُ العلماء واضطرُّوهُ الى ان يقرّ بتلاعبه في تلك الصور في مجلّة برلين (Berlin Volks-Zeitung, 29 Nov. 1908) . وكذلك كان زوّر عدّة اجنّة ادّعى انّها طبيعيّة دسّ فيها اقساماً بشريّة مع اقسام من هياكل القرود . وقد بيّنت وقتئذٍ مجلّة المشرق خبث هكل ومكرهُ ردّاً على مجلّة المقتطف المشايعة لذلك الملحد الكذّاب (المشرق ١٣ [١٩١٠] : ٢٣٨ ; ٣١٨ ; ٧١٩) . فان قلنا بعد هذا انّ هكل زوّر كتاباً لدروين لا نرانا مُبخسين لهُ حقّاً

ومهما كان من امر دروين واصحابه فان مذهب الجوهر الفرد هو اختراع هكل الالمانيّ . وقد تردّد صداهُ في بعض انحاء العمور لاسيّما بين الذين يعتبرون الحياة كوطن اللذّات واتباع الشهوات ليطلقوا لها العنان دون ان يحاسبهم عنها الالهُ الديّان اذ انّ كلّ شيء وفقاً لهذا المذهب ينتهي بالموت . وكان اكبر رواج مدّعيات هكل بين مواطنيه الالمان الذين يقرلون بترقّي الطبيعة البشريّة غير المتناهي الى ما هو فوق الانسان (Sur-homme) ويجارون لدولتهم الباوغ الى هذا المقام الراقي فيصرخون : «المانية فوق الكل» (Deutschland über alles) فلها التفوّق على كلّ العناصر والدول التي هي دونها . وقد ألفتت الجرائد والمجلّات الفرنسويّة انظار قرّائها الى نفوذ مبادئ هكل في دماغ مواطنيه الالمان الذين جروا في معاملاتهم مع بقية الدول بمقتضى تلك التعاليم على موجب سنّة الانتخاب الطبيعيّ وتنازع البقاء والقاء العناصر الضعيفة لتصير المانية الكلّ في الكلّ . قال احدهم دي مُنسن (de Munsen) : «انّ غاية التاريخ هي التمدُّن والتمدُّن يقتضي سَحْق طبقات البشر غير القابلة للترقّي

بواسطة امم ارقى منها » . وقال لمپرخت (Lamprecht) مثل هذا القول الغريب الوحشي : « انَّ الشعوب الصغيرة كالنبات المتطفل الذي يجب السعي بالقائه » . وقال ادولف لُسون (A. Lusson) : « اننا نحن الالمان من عُنصر سامٍ ولذوي هذا العنصر السيطرة والسلطان فيجب على العناصر التي هي دونهم ان يخدموهم » . وقال تريتسك (Trietscke) مهذّب المانية الكبير : « انَّ المانية هي الدولة الشريفة بالذات ومن مهمّاتها ان تعدّ للانسانيَّة عهداً جديداً فعليها ان تسير في طريقها دون ان يثبطها عائق يعترضها »

فترى من ثمَّ كيف طبَّق الالمان تعاليم درون وهكل على دولتهم بواسطة الانتخاب الطبيعي وتضحية القوى للضعيف . وفي عدد قادم نبحث ان شاء الله عن صحَّة كلّ هذه الدَّعيات الباطلة فنزيفها بالبراهين العلميَّة (الهُ صلة)

الدَّعوات في مزامير داود

للاب فرديناند توتل اليسوعي

يحثّ السيّد المسيح على تلاميذه في انجيله الشريف « ان يحبُّوا اعداءهم ويحسنوا الى مبغضيهم ويُصلّوا لاجل من يُؤذيهم ويضطهدهم » واوصى بولس الرسول اهل رومية (١٢ : ١٤) قائلاً : « باركوا الذين يضطهدونكم باركوا ولا تلعنوا » ومن ثمَّ لم تزل الكنيسة تحذّر ابناءها عن اللعنات والشتائم وقد جعلت تحذيرها المذكور في جملة وصاياهُ تعالى مع الوصيَّة الثامنة التي تأمرنا بالامتناع عن شهادة الزور وعن كل ما يسيء القريب من الشتائم

على انك اذا تصفَّحت بعض اسفار الكتاب المقدس ولاسيما كتاب المزامير اخذك العجب مما يعرض لك في عدة فصول وآيات من الفاظ الشتم وروح الانتقام كأنها نفثة مصدور قد نكَّل به النبيّ عدوّهُ وابتلاهُ باشد النكبات وهو مثابرٌ على امره يشفي غليله بقذف اللعنات والشتائم على من ظلمه ويستطر ناراً من